بغداد، ١٩٨٤، ص ٩٨ : نيبور، المصدر السابق، ص ٧٤.

(٧٦) نيكتين، المصدر السابق، ص ٤٤ : Davis، op. cit، P200.

(٧٧) عباس العزاوي، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية (١٢٥٨-١٩١٧م)، بغداد،١٩٥٨، ص١٢٨ ومابعدها.

(٧٨) غانم محمد على، النظام المالى العثماني في العراق ١٨٣٩-١٩١٤م، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٩، ملحق رقم (٥)، ص / ج. وللمزيد من التفاصيل ينظر: خليل على مراد، تاريخ العراق الإداري والاقتصادي في العهد العثماني الثاني، رسالة ماجستير مقدمة لمجلس كلية الآداب / جامعة بغداد، ١٩٧٥، ص ٤٣٥ ومابعدها.

(٧٩) المصدر السابق، ص ٧٧.

(٨٠) عباس العزاوي، العمادية في مختلف العصور، هةولير، ١٩٩٨، ص ١٣٩. وللتفاصيل ينظر: كاوه فريق احمد، إمارة بادينان ١٧٠٠-١٨٤٢م دراسة سياسية اجتماعية ثقافية، رسالة ماجستير مقدمة لمجلس كلية الآداب / جامعة صلاح الدين، ١٩٩٨، ص١٧٣.

(٨١) ينظر الملحق رقم (٥).

(٨٢) شيركوه، المصدر السابق، ص ٤٤ : ماميسانز، المصدر السابق، ص ٣٩.

(٨٣) حسين حزني المكرياني، موجز تاريخ أمراء سوران، ت: محمد الملا عبد الكريم، مطبعة سلمان الاعظمي، بغداد، د.ت، ص٤١.

(٨٤) العزاوي، تاريخ النقود العراقية ...، ص٩٨. ينظر الملحق رقم (٦).

المبحث الثالث: الوضع الثقافي

لم تكن الدولة العثمانية تعد الخدمات التعليمية من واجباتها في البداية لذلك ظلت المؤسسات التعليمية المتمثلة بالكتاتيب والمدارس الدينية تتولى مهمة التربية والتعليم[١]، وترتب على ذلك انتشار الأمية في معظم مناطق الدولة العثمانية ولا شك ان هذا الإهمال من قبل الدولة ترك أثارا سلبية على كوردستان أيضا، وأدي بمرور الزمن إلى ارتفاع نسبة الأمية[٢]، ولم يقتصر ذلك الإهمال في الفترة موضوعة البحث بل استمر حتى أواخر القرن التاسع عشر[٣].

بالرغم من ذلك فقد استمرت في كوردستان الجهود للاهتمام بهذا الجانب وبشكل خاص فتح المدارس وتوسيع المكتبات كما اهتم الأمراء بالعلم والعلماء، فالكورد قد أولوا التعليم أهمية كبيرة وكان في كوردستان عدد كبير من المدارس تنتشر في العديد من القرى، وعرف عن الكورد حبهم ودعمهم للمدارس والعلماء لذلك انتشرت المدارس في مدن كوردستان وخاصة في السليمانية إضافة إلى كركوك والموصل والجزيرة وئاميدي[٤]، لذلك فقد كانت العديد من مدن كوردستان وقراها غاصة بالمدارس الدينية والطلاب وبأهل العلم ورجال الأدب أواخر القرن الثامن عشر[٥].

يعود اهتمام الكورد بهذا الجانب إلى عدة قرون خلت، فمنذ القرن الثالث عشر والرابع عشر كانت هناك حركة ثقافية واضحة في كوردستان حيث اشتهرت مدارس مثل (قوبان) في (ئاميدي)، وكانت من اشهر المدارس في بادينان[٦]، وكان في الجامع الكبير في آمد ثمانين حلقة للدروس في آن واحد إضافة إلى مدارس أخرى تؤكد على العلوم الدينية، وكانت هناك مدارس في مدن (وان) و (ماردين) و (بدليس) و (رواندز)، وكانت هناك مكتبات عامرة في كوردستان مثل مكتبة (آمد) ومكتبة (بدليس) وغيرها[٧].

لقد كانت المساجد والجوامع والتكايا والكتاتيب هي التي تتولى مهمة التعليم

في كوردستان، واستمرت لفترة طويلة مكانا لحلقات الدروس المتداولة، بل لم يكن في كوردستان مركز أخر غير المسجد يستطيع القيام بهذه المهمة حيث كان في اغلب القرى، وكان في جانب المسجد مكان خاص متكون من غرفة أو عدة غرف مبنية من الطين غالبا ما يتخذها الطلاب مكانا لراحتهم وأكلهم ونومهم، وكان يخصص للمدرس غرفة خاصة يدطرس فيها طلابه، وكان المسجد يمثل المرحلة الثانية من مراحل الدراسة حيث كان الطالب يتعلم مباديء القراءة والكتابة أول ما يتعلم في الكتاتيب ومن البيوت[٨].

استمر طالب العلم يتلقى الدعم من الأمراء والمواطنين لتأمين المأكل والملبس والكتب، ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى وثيقة وقفية للأمير سليمان باشا ((ت ١٧٦٤م)) تظهر مدى الاهتمام بالطلاب والمدرسين والمدارس في إمارة بابان فمن بين الجهات التي وقطف جميع ممتلكاته عليها ((مدارس قلعة جوالان ومدرسيه وطلابه وجوامعه وعلى دار الضيافة والوعاظ والمترجمين وعلى مدرسة (كلعنبر) ومدرسيه وطلابه وجامعه، وعلى مدارس وطلاب ومدرسي قصبة (كوي) وعلى مدرسة اربيل ومدرسيه وعلى المدرستين اللتين بناهما بكركوك وعلى الطلاب والمدرسين))[٩] ويؤكد جلادت بدرخان ذلك الدعم والاهتمام ويقول ((يعتقد البعض ان كوردستان كما تبدو وطن لبدو رحل ... لكن الحقيقة هي خلاف ذلك، ويخبرنا التاريخ ان اغلب عواصم الإمارات الكوردية والتي استمر قسم منها حتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت عواصم للفكر إضافة لكونها مراكز اقتصادية وسياسية ... فقد كان سخاء الأمراء وجودهم يجذبان الأساتذة والطلاب))[١٠].

تركت الأوضاع التي كانت تعيشها كوردستان أثارا سلبية على الوضع الثقافي أيضا وخاصة تحول كوردستان إلى ساحة للصراع والحروب الكثيرة بين العثمانيين والإيرانيين[١١]ومن ثم الحملات العسكرية العثمانية على كوردستان لإعادة السيطرة المركزية للدولة العثمانية وما رافقها من قتل ودمار حتى القضاء على الإمارات الكوردية والتي كانت تدعم العلم والعلماء[١٢]، كما ذكرنا سابقا، حيث

نتج من ذلك زوال الدعم وبالتالي اصبح عبئ تهيئة تلك المستلزمات على عاتق المواطنين فقط.

كان الطالب في كوردستان خلال دراسته العلمية والدينية يمر حسب رغبته وإمكانياته بعدة مراحل، رغم انه من الصعب تعميم الدراسة ومراحلها على جميع مناطق كوردستان فان اهم المراحل هي:

١- مرحلة الكتابي (القوتابي):

يبدأ التعليم في كوردستان ابتداءِ من الكتاتيب، وقد انتشرت الكتاتيب في مختلف أنحاء كوردستان وقد تأسست بجهود فردية أحيانا وجماعية[١٣] أحيانا أخرى، وكان التعليم فيها مجانيا إلا ان أباء الطلاب عادة كانوا يقدمون كل حسب إمكانياته بعض والمساعدات الأخرى إلى المعلمين (الملالي) الذين يعلمون الأطفال الكتابة والحساب والقران الكريم ولم تقدم الحكومة العثمانية أية مساعدات مالية إلى هذه الكتاتيب، وكانت هناك في بعض المناطق كتاتيب خاصة بالبنات[١٤] ومن الارجح إنها كانت من الحالات النادرة، من جانب أخر فقد كانت هناك للاقليات الدينية الأخرى مؤسسات تعليمية دينية تشبه في الغرض الذي من اجله أنشأت كتاتيب المسلمين ومدارسهم[١٥].

٢- مرحلة الـ (سوخته)[١٦]:

وتمثل المرحلة الثانية بعد الكتاتيب والانضمام إليها جائز لكل طالب وحسب إمكانياته ومقدرته في القراءة والكتابة وممن لهم رغبة في مواصلة الدراسة، ويتأخر بعض الطلبة في هذه المرحلة حوالي عشر سنوات أو اكثر، ولم يكن لتلك المدارس مداء ولا أساتذة دائميين ولا أجور دراسية ولم تكن لها موازنة[١٧].

٣- مرحلة فقي (المتعلق):

لم تكن الدراسة محدودة في هذه المرحلة بل يرتبط ذلك برغبة الطالب في التحصيل والتوسع والتحقيق وكان لعامل الذكاء دور مهم في تقدم الطالب كما ان لرغبة الاستمرار دور مهم، وكان عنصرا أساسيا لتفوق الطالب[١٨].

٤- مرحلة المستعد:

تتميز هذه الفترة بالدارسة المكثفة والمناقشات المستفيضة، ويبدا الطالب أيضا بالتطبيق العملي حيث يكلف بالقيام بتدريس طلبة المرحلة الأولى أي الكتاتيب وذلك لاكتساب الخبرة في التدريس، وفي هذه المرحلة يكون الطالب قد اكمل دراسته ويكون بذلك قد أمضى حوالي عشرين سنة وهو متنقل بين أستاذ وأخر في أنحاء كوردستان وخارجها للتحصيل العلمي، وثم يمنح الطالب الإجازة العلمية في احتفال ينظم له لذلك وبحضور علماء المنطقة وشخصياتها الاجتماعية[١٩].

بقيت المدارس الدينية تؤدي دورها في نشر الثقافة والعلوم بين الكورد وقد تخرج منها الكثير من العلماء الذين كان لهم دور بارز في رفد الثقافة الكوردية بنتاجاتهم واعتبروا رواد الحركة الثقافية في كوردستان[٢٠]. لقد استفاد الكورد من تلك المدارس الدينية، فبالإضافة إلى العلوم الدينية تلقى الطلبة دروسا في اللغات العربية والفارسية والاهم فيها ان الطلبة كانوا يتعلمون الشعر الكوردي والأدبيات الكوردية والأشعار الحماسية الباعثة على إثارة الوعي القومي[٢١].

كان الامراء الكورد يهتمون بالتعليم في اماراتهم ويمكن إيراد نموذجين على اهتمام الكورد بالثقافة والمدارس والطلبة، منها ما كانت تبذل من جهود في إمارتي بابان وبوتان لهذا الجانب، فقد كان أمراء بابان يولون الأهمية القصوى للمدارس والمكتبات وكانوا يعودون بعد الحروب إلى بناء ما تهدم من مدارس، ويشجعون علماء الدين ويزورون العلماء والمدرسين في مدارسهم ويرسلون أولادهم إلى تلك المدارس ليعيشوا عيشة الطلبة وكان الأمراء أنفسهم يحضرون الدروس ويترددون على مجالس الوعظ، حتى ان عبد الرحمن باشا البباني الذي تولى الحكم ست مرات كان عالما ورعا محبا للعلم والعلماء ومدرسا ناجحا زاول مهنة التدريس مدة طويلة[٢٢]. وقد أسهمت السيدات أيضا في خدمة العلم وطلابه بل بالغن في ذلك حتى يذكر ان (فاطمة خانم) بنت عبد الرحمن باشا أنشأت من مالها حماما في السليمانية بجنب السراي ووقفته على طلاب المدارس والمساجد[٢٣]. وفي بوتان كان

للأمير بدرخان بك دور بارز في نشر الوعي الثقافي، وشهدت الثقافة الكوردية اهتماما كبيرا ومحاولات متكررة منه للرفع من شانها وزيادة الاهتمام بالتربية والتعليم ومنها اتفاقه مع الفرنسيين لإرسال الطلبة إلى فرنسا للتعليم، بالإضافة إلى ان ذلك جاء ضمن سياق اهتمامه الكبير بهذا المجال، إلا انه كان يدرك أيضا بأنه بحاجة إلى قاعدة من المثقفين الكورد للاعتماد عليهم في حركته القومية التحررية[٢٤].

خلال أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر برز الكثير من المفكرين الكورد منهم علماء دين أو شعراء أو رجال إدارة وغيرها من المجالات لا يمكن حصر أسمائهم جميعا في هذه الدراسة ويمكن إيراد بعض المعلومات عن عدد منهم من أمثال:-

١- الملا محمود بايه زيدي:

ولد حوالي سنة ١٧٩٧م، وتميز بقابلياته الكبيرة وسعة الأفكار وكان يتقن اللغات العربية والفارسية والتركية، وكان يعد واحدا من علماء عصره وعمل لفترة طويلة مديرا للمدرسة الدينية في بايزيد وقد خدم الثقافة الكوردية مؤلفا ومترجما للنتاجات الأدبية واللغوية والتاريخية واسهم في جمع ونسخ عدد كبير من اندر وانفس المخطوطات الكوردية وتوفي بعد سنة ١٨٦٧م[٢٥].

٢- محمد بن أدم بن عبد الله:

ولد سنة ١٧٤٧م وكان كثير الأسفار في طلب العلم، فبعد رحلته إلى مهاباد عاد وسكن في رواندز في عهد الأمير محمد باشا ووجد منه التقدير والدعم وعمل مدة في التدريس والتأليف وقرا عليه الكثير من العلماء منهم مولانا خالد النقشبندي والعلامة محمد الخطي، وبعد خلافه مع محمد باشا ترك رواندز وسكن قرية (ديلزة) حتى وفاته فيها سنة ١٨٣٦م[٢٦].

٣- الملا يحيى بن خالد حسين المزوري:

ولد سنة ١٧٧٢م في قرية باله ته شرق دهوك وتنقل في كوردستان ودرس على

أساتذة كبار في العمادية والموصل وبغداد ومن اشهر من تلقى العلم عنده الشيخ نور الدين البريفكاني (١٧٩٠-١٨٥١م)[٢٧]وتوفي المزوري في بغداد سنة ١٨٣٩م[٢٨]. واشتهر من بعده ابنه طه بن يحيي المزوري[٢٩].

وهناك علماء اخرون اشتهروا كثيرا في الفترة موضوعة البحث من أمثال الشيخ معروف النودهي (١٧٥٣-١٨٣٨م) ومفتي زهاوي (١٧٩٣-١٨٩٠م) وإبراهيم الديار بكري (ت: ١٨٣٩م) وخليل الاسعردي (١٧٥٤-١٨٤٣م) وعبد الله الخرباني (١٧٤٦-١٨٣٨م) وغيرهم[٣٠].

من جانب أخر فقد برز من بين طلبة تلك المدارس الدينية الكثير من الشعراء ولا يمكننا هنا إيراد معلومات عنهم جميعا بل نشير إلى أهمهم:-

١- پەرتوی هەكاری (١٧٧٨-١٨٤١م):

ينتمي في نسبه إلى أمراء هكاري المشهورين، والمنطقة التي ولد فيها كانت مشهورة في كوردستان بطبيعتها وثقافتها، وبروز عدد كبير من العلماء والمفكرين فيها، ويؤكد الباحثون انه أتم كتابة ديوانه باللغة الكوردية سنة ١٨٠٦م[٣١].

٢- نالي (١٨٠٠-١٨٥٦م)[٣٢]:

اسمه خضر بن احمد شاويس الملقب بـ (نالي) ولد في قرية (خاكو خول) في سهل شاره زور بمنطقة السليمانية، درس في قرداغ والسليمانية وتجول في مناطق كثيرة من كوردستان للدراسة، ترك وطنه قبل استيلاء العثمانيين على إمارة بابان متجها إلى الشام واستنبول، كان الشاعر عالما دينيا كأغلب الشعراء، إلا ان ثقافته لم تؤثر في شعره تأثيرا بليغا من حيث المحتوى، كان يتقن الفارسية يعرف العربية والتركية، ويصفه (معروف خزنه دار) ((بأنه ليس في مستوى أرقى ما وصل إليه الشعر الكردي الكلاسيكي فحسب وإنما هو مؤسس وإمام الحركة الأدبية التي ظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر في منطقة السليمانية))[٣٣]، واشتهر (نالي) كثيرا بالرسالة الشعرية التي كتبها في دمشق وأرسلها إلى صديقه الشاعر (سالم) في السليمانية حيث يستفسر عن أوضاعها في ظل الحكم

العثماني، وتمثل قصيدته قمة في الوطنية والتعلق بالأرض، ويقول في مطلعها[٣٤]:

قوربانى توزى رێگەتم ئەى بادى خوش مروور

وەى پەيكى شارەزا بەهەموو شارى شارەزوور

روحي فداء لغبار دربك أيتها الريح السريعة الهادرة

ايها الرسول العارف بجميع أنحاء سهل شهرزور

٣- سالم (١٨٠٠-١٨٦٦م):

اسمه عبد الرحمن بن محمد بك، ولد في السليمانية وكأقرانه من الأطفال درس في المدارس الدينية إلا انه لم يكمل دراسته، وكان الشاعر سالم يري مستقبل الشعب الكوردي في بقاء الإمارة البابانية، فقد انعكست الحياة الاجتماعية في السليمانية ونضال الكورد ضد السيطرة العثمانية في نتاجه بصورة واضحة، ففي قصيدته الجوابية للشاعر (نالي) يصف الأوضاع في السليمانية في ظل الحكم العثماني، ويدعوه إلى عدم العودة إليها حتى انه يوضح في شعره عما لحق بالبلاد من الخراب والدمار بسبب الحكم والظلم العثماني[٣٥].

٤- كوردي (١٨٠٩-١٨٤٩م):

اسمه مصطفي بن محمود بك بن احمد بك، ولد في السليمانية ودرس في المدارس الدينية وأصيب في أواخر أيامه بمرض نفسي وتوفي وهو في الأربعين من العمر، وكان مرآة انعكست فيه تناقضات المجتمع وتخلفه[٣٦].

يسمي (خزنه دار) الشعراء الثلاثة (نالي - سالم - كوردي) بالمثلث البابانى ويقول بان نتاجاتهم أصبحت مصدرا لجميع التطورات التي طرأت على الأدب الكوردي ودستورا للشعراء الذين ظهروا في الأجيال القادمة وعكسوا آمال الشعب الكوردي ونضاله في سبيل الحرية والحياة الكريمة[٣٧].

٥- سري خانم ديار بكري (١٨١٤-١٨٦٥):

شاعرة مشهورة تركت موطنها آمد وهاجرت إلى بغداد ثم عادت إلى آمد بعد مدة وهاجرت إلى استنبول حتى توفيت فيها. لها منظومتان شعريتان باللغتين

التركية والفارسية[٣٨].

وبرز العديد من الشعراء الآخرين في تلك الفترة من أمثال عبد الرحيم مه لا سعيد مه وله وي (١٨٠٦-١٨٨٢م) وحاجي قادر احمد كويي (١٨١٥-١٨٩٢)[٣٩] واخرون غيرهم.

يتميز الكورد بانهم يحبون تقاليد أجدادهم ويتصفون بها[٤٠]، حيث يمتلك الشعب الكوردي تراثا غنيا من الحكم والأمثال والقصص الشعبية، والتي يتناقلها الأبناء من الأباء والأجداد[٤١]، وهناك بعض الرجال والنساء المختصين في تناقلها ومن تلك البطولات (ملحمة قلعة دمدم)[٤٢]، والتي تحتل مكانة بارزة في حياة الشعب الكوردي وتاريخه وادبه وفولكلوره لأنها تعتبر مثالا للتضحية والبطولة.

أما الغناء الكوردي فله نغمات خاصة، رغم اختلاف الأغاني باختلاف المناطق إلا إنها من حيث الأصول، نغماتها واحدة، فتلك الأغاني منها ما ترمز إلى أحداث تاريخية[٤٣] أو أغاني عاطفية وما تتعلق بالحب ومنها ما ترمز إلى وصف الطبيعة، أو تخليد أسماء بعض المواقع الجغرافية ومنها ما تعكس الحياة الاجتماعية للمجتمع الكوردي[٤٤].

استمرت المدارس الدينية في القيام بواجباتها التعليمية وكبديل عن المدارس الرسمية ليس فقط في كوردستان بل في معظم أرجاء الدولة العثمانية، إلا ان الدولة العثمانية بدأت بتأسيس مدارس حديثة على النمط الأوروبي لتجهيز الدولة بالموظفين والكتبة، ومنذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر برزت الأصوات التي تطلب القيام بالإصلاحات في مختلف المجالات، ولما كان الجيش الميدان الأول الذي شمله الإصلاح فمن الطبيعي ان تكون اقدم المدارس الحديثة التي تأسست في الدولة العثمانية هي مدارس عسكرية، فقد أنشأ السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) عددا منها، وفي عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) تأسست عددا من المدارس الابتدائية والثانوية، وظهرت فكرة تأسيس نوع من المدارس تكون كمرحلة بين الكتاتيب والمؤسسات التعليمية الرسمية العالية وسميت

تلك المدارس بـ (الرشدية) ويعود تاريخ إنشائها إلى سنة ١٨٣٨م[٤٥].

لم يستطع السلطان محمود الثاني من إلغاء المدارس الدينية لان ذلك لم يكن سهلا بسبب فشله في استحصال موافقة العلماء على ذلك ووجد ان الحل الأفضل يكمن في إبقاء المدارس الدينية كما هي، بينما يحاول إضافة إلى ذلك وضع نظام تعليمي جديد وفق النظام العلماني[٤٦]، وفي سنة ١٨٤٦م قدمت لجنة حكومية مقترحا بتشكيل ديوان للمعارف العمومية ليشرف على شؤون التعليم، وفي أب ١٨٤٦م اصدر الباب العالي قانونا بإصلاح النظام التعليمي في الدولة العثمانية وبموجبه تولت الحكومة العثمانية الأشراف على التعليم بدلا من رجال الدين وذلك عن طريق مجلس دائم للمعارف[٤٧]، ولكن المجلس لم يكن يملك الإمكانيات، سواء المالية منها أو البشرية لأداء واجبه في الدولة المترامية الأطراف، ويظهر ذلك بوضوح من خلال وصف أحد أعضاء المجلس لإحدى جلساته فيذكر عضو المجلس (ولي الدين بك) بأنه عند طرح موضوع صرف (١٢٠) قرش لإصلاح أنابيب المياه في مدرسة، فانه قرأ الطلب لأعضاء المجلس بصوت مرتفع رأيت (واحدا يسر لمن جالس إلى جانبه حديثا وأخر يكتب كتابا وثالثا يأكل الحمص ورابعا اثقل النعاس هامته وخامسا يقرا جريدة في يده)[٤٨]. وبالرغم من ان هذا الوصف يبدو وكأنه لا يخلو من المبالغة، إلا انه مهما يكن فهو يعكس نقص الإمكانيات المالية ودرجة الفوضي الإدارية في الإدارات العثمانية، كما يمكن ان نستنتج أيضا المدة التي تحتاجها كوردستان لتصلها المدارس الرسمية العثمانية بأشراف مثل ذلك المجلس، بالرغم من كل ذلك فانه في سياق اهتمام الدولة في هذا المجال تحول المجلس بعد سنة إلى وزارة المعارف العمومية[٤٩].

إلى جانب وجود المدارس الدينية الإسلامية في الدولة العثمانية فان مدارس الاقليات الدينية انتشرت أيضا، وفي الوقت نفسه لم تكن الحكومة العثمانية تتدخل في شؤونها أو مناهجها، وبعد إعلان التنظيمات انتعشت هذه المدارس كثيرا وقامت الطوائف غير المسلمة بإحياء هذه المدارس وإصلاحها[٥٠]، أما المدارس